المرأة في شعر الفقهاء في العصر الاموي

د. سهام النجم

كلية الاداب / جامعة الكوفة

التمهيد

للمرأة في شعر الفقهاء نصيب كبير شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الشعراء الآخرين؛ لان المراة هي الجزء المكمل لكيان الرجل التي تجعل الحياة اكثر جمالا وامتاعا ((وتمثيلا للعاطفة الإنسانية الخالدة))([1]) فابتدأوا قصائدهم بالحديث عنها؛ لأنها اشهى الى النفس، واحلى موقعا في الاذن([2])، وان كثرة شعر الشعراء بالمرأة والتعشُّق في صفاتها لم يكن ((امرا عارضا ولا نتيجة مصادفة انما كان من التراث الروحي والثقافي المتوارث، والتربية التي درجوا عليها))([3]) فالنفس الإنسانية تعشق الجمال وتتحسَّس مواطن الأُلفة وتتبع دواعي المحبة طالما هي بعيدة عن كل ما يهينها ويكدرصفاءهاولايتعارض مع مبادىء دينها، و((الحب ليس بمنكر في الديانة ولا بمحضور في الشريعة))([4]) وانما ((نظر الاسلام الى النفس الإنسانية على انها كتلة من الاهواء والغرائز والميول ... وان خيرها ما يكون عمله فيها هو السمو بهذه الميول، لا يحاربها وانما يصعّدها، ولا يقتلها وانما يستثمر القوة الخيرة فيها))([5]) وبتأثير الاسلام والقرآن في الأدب ظهرت انبل العواطف الاسلامية واكرمها واضحة في شعر الفقهاء والزهّاد، وهذا مناسب مع ما عُرِفوا به من تقوى وورع جعلوا سلوكهم في الحب متكاملا مع سلوكهم في الحياة فكانوا ((بذلك السلوك قدوة؛ اذ جعلوا الشعر وهو فن اداة تهذيب وترقيق الشعور .. واخذ النفس بفنهم الرفيع الى اهداف سامية كابحين جماح شياطينهم ان نزعت الى سفاف الاهداف بحُجة حرّية الفن، والفنان طليق حقا ولكن من دائرة إنسانية ليس فيها ما يزري او يشين))([6]).

المرأة في شعر الفقهاء في العصر الاموي

ان المراة في شعر الفقهاء نفحة طاهرة ونغمة نقية تتعالى في آفاق العفة والطهر، مؤمنين ان ((مَن عشقَ فعفَّ فكتمَ فماتَ فهو شهيدٌ))([7])، وكان للحب عندهم منزلة عظيمة؛ اذ تبوء المحب العف مكان الشهادة، وله ثواب الأجر ((وسئل شريك([8]) بن عبد الله القاضي عن العشاق، فقال: اشدهم حبا اعظمهم اجرا))([9]).وقرنه بعضهم بالايمان ((فقيل لابي السائب المخزومي([10]): أتُرى احدا لايشتهي النسيب؟، فقال: اما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا))([11]).وزعم بعضهم ان ((لا ذنب لأهل الهوى، ولا وزر، وان خطاياهم تُمَحَّص عنهم بطول بلائهم وكثرة زفراتهم، وما لقوا من شقاء بأودّائهم))([12]).وابن مُليكة وهو من الفقهاء التابعين وقضاة المسلمين في الطائف يفرّغ الجنة من جميع الرغائب لما تصبو اليه النفس ويميل اليها القلب اذا لم تكن فيها حواء تبادل آدم بحب وتقابل شعور الانس والعطف منه بقوله:

1

الهوامش:

1() الغزل في العصر الجاهلي: 3.

2() ينظر: مقدمة الشعر والشعراء، ابن قتيبه: 1/75.

3() المرأة في الشعر الجاهلي، المقدمة: (هـ).

4() طوق الحمامة: 47.

5() تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: 189.

6() مع فقهاء الإسلام: 35.

7() ((جاء في كتاب محاضرات الأدباء للراغب الاصفهاني: 2/62، إن (النبي صلى الله عليه وآله وسلم) قال: ((من عشقَ فعفَّ فكتمَ فماتَ فهو شهيدٌ)).

8() شريك القاضي: هو ابو عبد الله شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي، فقيه عالم بالحديث ولد ببخارى 95هـ ، كان عادلا في قضائه، كثير الصواب، استقضاه المنصور العباسي على الكوفة 153هـ، ثم عزله المهدي، توفي 117هـ بالكوفة، ينظر: الإمتاع والمؤانسة: 2/100، واخبار القضاة: 3/150، وبهجة المجالس: 1/121، والوفيات: 80، وطبقات الفقهاء: 87.

9() الموشى والظرف والظرفاء: 1/91.

10() هو عبد الرحمن بن ابي عمار الجشمي من قرّاء اهل مكة، يلقب بالقس لعبادته وكان ارق خلق الله واشدهم غزلا، الاغاني: 7/290، وينظر: 8/334.

11() العمدة، 2/117.

12() الموشى : 1/90.

ما تنظرُ العينان احسنَ منظراً ... من طالبٍ إلفاً ومن مطلوبِ
ما كان في حورِ الجنان لآدم ... لولم تكن حواء من مرغوبِ
قد كان في الفردوس يشكي وحشةً ... فيها ولم يأنس بغيرِ حبيبِ([13])

وقد جاء في الأغاني: ((ان سعيد بن المسيب مرَّ في بعض أزقة مكة فسمع الاخضر الحربي يتغنى في دار العاص بن وائل:

تَضَوَّع مسكاً بطنُ نَعْمانَ أذ مشتْ ... به زينبٌ في نِسْوةٍ خَفِرات

فضرب برجليه وقال: هذا واللهِ مما يلذُّ استماعه ثم قال:

وليست كأخرى أوسعت جيبَ دِرْعِه ... وأبدت بنانَ الكفّ للجَمَراتِ
وعَلّت بَنان([14]) المسك وَحْفاً([15]) مرجَّلا ... على مثل بَدْرٍ لاح في الظلمات
وقامتْ تَرَاءى يومَ جَمْعٍ فَأَفْتنتْ ... برؤيتها مَنْ راح من عَرَفات))([16])

ا

وفقيه ناسك آخر هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، احد الفقهاء السبعة الذين انتهى اليهم العلم في المدينة ((قيل له: كيف تقول الشعر مع النسك والفقه؟ فقال: لابد للمصدور من أن ينفث))([17]).
فحين تمتلىء النفس بلواعج حبيسة لا يمكن سترها فتتجاوز مداها وتأخذ سبيلها الى الظهور خلال التعبير فيجد صاحبها إذ ذلك راحته وهدوءه([18])، وبهذا العامل النفسي عبر عبيد الله عن حبه فقال:

كتمتَ الهوى حتى أضرَّ بك الكَتْمُ ... ولامك أقوامٌ ولومُهُم ظلم([19])

والفقيه عروة ابن اذينة ((كان شاعرا غزلا مقدما من شعراء أهل المدينة))([20]) أسره الحب فانشد ((رقيق الغزل))([21]) بقوله:

إذا وَجدتُ أُوارَ الحُبِّ في كَبِدِي ... عَمَدتُ نحوَ سِقاء القَوْمِ أَبْتَرِدُ
هَبْنِي بَرَدْتُ ببَرْدِ الماءِ ظاهره ... فمَنْ لِنارٍ على الأَحشاء تَتَّقِدُ([22])

---

[13] ادب الفقهاء: 90 ().
[14] بنان: لعلها مصحّفة عن فتاة ().
[15] الوحف: الشعر الغزير الاسود ().
[16] الاغاني: 6/203 ().
[17] البيان والتبيين: 1/356 ().
[18] ينظر: الشعراء نقادا: 160 ().
[19] الاغاني: 9/176، والعقد الفريد: 6/121 ().
[20] م.ن: 21/105 ().
[21] زهر الاداب: 2/209 ().
[22] شعره: 316- 317 ().

استنكرت امرأة على الشاعر هذا القول ((فقالت له: أنت الذي يُقال فيك الرجل الصالح وتقول في مثل هذا؟ واللهِ ما قال هذا رجل صالح، فيعلِّق ابن عبد ربه عليها بقوله: كذَّبت عدوة الله، عليها لعنة الله؛ بل لم يكن مرائيا؛ بل انه كان مصدورا فنَفَّث))([23]) واضح ان رقة غزل الشاعر شغلت عقول النساء في خدورهن معترفات بما لقينه من تأثير أثار وَقْدَة الهوى عندهن، منكرات ان يكون الفقيه محبا، وان لقلبه حقا كما لسائر البشر، غير عارفات بان هناك توازنا بين حق القلب وحق العقل، وكان هؤلاء الفقهاء ينظرون الى هذا الشعر على انه اداة تنفيس وشكوى ونجوى ينمُّ عن تجربة شخصية صادقة واخلاص منفرد مستمد من نفسٍ تقيةٍ مؤمنةٍ بمبادىء الدين والاخلاق فيهما يقيانهامن ان تكون كاذبة في حبها، والى هذ الحقيقة اشار الفقيه ابنُ سيرين بقوله: ((وهؤلاء الفقهاء كانوا يتعشَّقونَ بلا ريبة))([24]) وان قلبوهم ارهفتها العبادة والتقوى كانت تهفو لسماع أناشيد الهوى والغرام، ((فاقتحم تيار الغزل على كثير منهم في مساجدهم وحلقات دروسهم وخلواتهم))([25])، فابن عباس الفقيه المفسِّر المُحدِّث الورع استقبل عمر بن ابي ربيعة في المسجد وعنده نافع بن الأزرق وجماعة من الخوارج يسألونه في امور الدين، واستنشده بعض شعره في الغزل فانشده رائيته فأنكر نافع بن الأزرق على ابن عباس سماعه القصيدة والاهتمام بشاعرها والإعجاب به، وتأثيره عليه وعلى ما جاء به من اجله([26]).ولا يخفى ان رقة الطبع تستتبع الميل الى الشعر والأدب، ولهذا كان ابن عباس مهتما بالشعر ومقدرا صاحبه، فلقيت عبقرية عمر الشعرية اهتماما وحظوة عنده وهذا لا يتنافى ومكانته الدينية، ولا قيمة في إنكار نافع بن الأزرق في ان يسمع ابن عباس شعرا من شاعر يحسن القول؛ فضلا عن انه الفقهاء يُعنَون عناية كبيرة بالشعر العربي؛ ليستعينوا بذلك على فهم القرآن والسنة النبوية الذين جاءا بلسان العرب،وقف البحث سابقاً على المراة في شعر الفقهاء ونظرتهم اليها، ومن الجدير بالدراسة – هنا - الوقوف على الصفات العامة التي تتنصف بها المراة عند الفقهاء الشعراء في العصر الأموي، وإن من أهم هذه الصفات التي سيتناولها البحث هي:

1- الصفة الشكلية:شغف الفقهاء الشعراء في العصر الأموي بالمرأة وراحوا يتطلعون الى تصوير ذلك الجمال الى مثل اعلى تتجلى فيه مقاييس الذوق الجاهلي القديم ممتزجا بالذوق الإسلامي الجديد في نظرتهم الى أعضاء المرأة وصفاتها مؤكدين فيها على القيمة الخُلقية والروحية للمرأة منها عنوان زينتها التي لا تصدأ ولا تزول؛ وذلك بقول شريح القاضي:

فتاةٌ تُزيِّن الحُلي إن هي زُيِّنَتْ كأن بفيها المِسكُ خالطَ مَحلبا([27])

ومن الملاحظ ان الفقهاء الشعراء لم يلتزموا بالتعاليم الاسلامية بما يتصل بالحديث عن المرأة؛ اذ جوَّزوا ذلك؛ وفي رأيهم ان هذا الامر لا يتعارض مع العقيدة والدين أيُّ تعارض، فكانوا ينظرون اليه على ((انه زاد فني وخيال شعري ولهو بريء ويرون في إدراك الجمال على هذا النحو معنىً من إدراك جمال الله عزَّ وجل))([28]).

والجمال صفة تنبسط لها النفس حتى تفيض حباً, ويأنس لها كل إنسان مرهف الشعور دقيق العواطف والفقه بشر حساس يبهره الجمال أينما وجد, والمرأة هي رمز من رموز الجمال الذي وصفه بعيداً عن الحسية المفرطة التي نلاحظها في وصف الشعراء الجاهليين لأجساد حبيباتهم؛ فضلاً عن وصفه لجسد الحبيبة لم يكن وصفاً مطوّلاً مفصّلاً واقفاً على كل عضو من اعضاء الجسد؛ بل كان وقوفاًعابرا سريعا موجزاً قارناً جمال حبيبته بجمال الطبيعة ((ارث الطهارة الطبيعية))([29])، مقتصرا على ((الأوصاف التي تقع عليها الأعين))([30])، او الصورة الخارجية التي يتلاقى فيها إنسان بإنسان فلم يخرج الفقيه عن حدود اللياقة والآداب وهو ينهل من مورد القرآن الشريف الذي ينهى عن الفحش؛ لأنه من امر الشيطان لقوله تعالى ((**إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ**

---

[23] العقد الفريد: 6/121 ().
[24] تزيين الاسواق: 7 ().
[25] اتجاهات الشعر في العصر الأموي: 356 ().
[26] ينظر: الكامل: 3/ 135، والاغاني: 1/32 ().
[27] الاخبار والموفقيات: 47 ().
[28] اتجاهات الشعر في العصر الأموي: 358 ().
[29] تاريخ اداب العرب: 112 ().
[30] م.ن: 112 ().

تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ))([31]) كما نبّه على أن الله يكره ذلك الفحش وقائله: ((**لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ**))([32]).

2- الصفات الخُلقية:لم يقتصر شعر الفقهاء في العصر الأموي على الاهتمام بجمال المرأة الجسدي؛ بل سار الى الاهتمام بجمالها الخُلقي ، وهو عنصر مهم من عناصر الجمال؛ بل هو اقوى اثرا في النفس من الجمال الجسدي وان اهم عناصر الجمال الخُلقي في المرأة هو: حلاوة الحديث وبراعته، وسحر الصوت وعذوبته، وتوقد الذكاء، وكمال العقل واصالته، ولعل هذا ما يشير الى أنهم اكّدوا في حبِّهم على الفتاة الكاملة الخَلْق والخُلْق تأثرا بما جاء في القرآن الكريم في وصف الحور في قوله تعالى ((**فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ**))([33]).

الشاعر عروة ا بن أذينة يجمع بين جمالها الخَلقي وبين جمالها الخُلقي في كمال عقلها وحسن حديثها بقوله:

ما عشتَ تذكرُ حُسنَها وجمالَها
حوراءُ واضحةٌ تزالُ صَبابةً ذاك الأصيلُ إذا أردتَ محالَها([34])
وحديثُها الحسنُ الجميلُ وعقلُها

ويتحدث عروة بن أذينة عن نساء مصونات لسانهن ذلق، وحديثهن حلو، وكلامهن لين، ولكن من غير ريبة فقد صانهن الإسلام عن الفحش والخنى بقوله:

بيضُ النواعمِ ما همَمْنَ بريبةٍ كضباءِ مكةَ صيدهنَّ حرامُ
يحسبنَّ من لينِ الكلامِ زوانيا ويصدُهنَّ عن الخنى الاسلامُ([35])

وفي حسن الصوت ورقته يقول:

رخيمةِ اعلى الصوتِ خودٍ كأنها غزالٌ يراعي واشجا بالصرايمِ([36])

[31]() سورة البقرة: 169.
[32]() سورة النساء : 148.
[33]() سورة الرحمن: 70.
[34]() شعر : 141- 142.
[35]() م.ن: 374- 375، وينظر: 292.
[36]() م.ن: 231، وينظر قول اعشى هندان في الاغاني: 6/40

ومن إمارات إعجاب الرجل بالمرأة هو غنجها أو دلُّها وخفة روحها وهذا ما اثار اعجاب الشاعر عروة بن أذينة وفرحه سروره في حبيبته الى جانب جمالها بقوله :

اذا بدت لم تزل لهُ عجباً يونُقُهُ دلّها وميسمُها ([37])

((قد تستهوي المرأة الرجل وإن لم تكن اية في الجمال، وقد يرى فيها سحرا وجاذبية لا يراها الآخرون، وسر ذلك أن جمال المرأة ليس في بدنها فحسب؛ بل في روحها، وما تضمره في اطوائها من ملاحة وجاذبية وفتنة))([38])؛ فضلا عن امتلاك الشاعر او الفنان الحاسة الفنية العالية القادرة على ((إدراك أسرار الجمال المعقد، وهو ذلك النوع الدقيق الذي لا يفهمه إلا اصحاب الأذواق، وهذا من الصباحة ما يرجع الى دقائق الحسن وغرائب الملاحة ... وفي هذا الشأن تعذَّر أبو الأسود الدؤلي))([39]) بقوله:

أبَى القلب إلا أمَّ عوفٍ وحُبَّها عجوزاً ومن يحبب عجوزاً يُفَنَّدِ
كسحق اليماني قد تقادمَ عهدُه وجدته ما شِئتَ في العين واليد([40])

اراد ان يقول انها متميزة بحسن منظرها وجمال عقلها بين النساء كتميز البُرد اليماني في الثياب على الرغم من قدمه.ومن معاني الجمال الخلقي : جمال النظر وفتنته وان هذا الجمال يتجسد بما فيه من معنى عميق يخلب لب ناظريه ويرويه من ظمأ روحي، فالشاعر أعشى همدان، يصف نظرة عيني حبيبته اليه بنظرة عيني ظبية ام حانية على خشف لها، ليزيدها جمالية وقدسية وطهرا.

بقوله:

وكأنما نظرتْ بعينيْ ظبيةٍ تحنو على خِشْف لها وتَعَطّف([41])

ومن أسلحة النظرة ان تكون مُسترخية ناعسة او أنها نظرة ضعيف او مريض([42]) وصف عروة ابن أذينة حبيبته بأنها مريضة العينين بقوله:

دوايةَ المقلتين مشرقةً بالحسن يجري في مائها دمُها([43])

ويصفها مرة اخرى بأنها مُسترخية العينين كناية عن خفرها وحيائها، بقوله:

وعهدي بها ذوَابة الطرف تنتهي الى رملةٍ منها هيال حقابها([44])

---

[37] () 80 .م.ن:
[38] () 32- 33 . المرأة هذا اللغز الابدي:
[39] () 47 .الموازنة بين الشعراء:
[40] () 3/334 .ديوانه: 78، وينظر: شرح ديوان الحماسة:
[41] () 6/36 .الاغاني:
[42] () 64 .ينظر : الغزل في العصر الجاهلي:
[43] () 79 .شعره:
[44] () 260 .م.ن:

ويضفي عروة ا بن أذينة مسحة روحية حين يشبه حبيبته بالشمس لا من حيث ارتفاعها واشراقها، وإنما في لهيبها الذي يحرق الرمال فهو حين يتفرّس فيها يحترق هيبةً وخشوعاً بقوله:

يوم تراءت كانها أصلاً مُزنةَ بحرٍ يخفى تبسمُها
حين توسمتُها فأرمضني بعد اندمالٍ مني توسمُها([45])

والمرأة الجميلة جميلة حتى في مشيها وحركتها فهما ((ذات اثر بالغ في الجمال الروحي، لأنهما مرتبطان بالخفة واللياقة والتثني، ويضيفان الى جمال الأعضاء حياة))([46]).

وقد ساد الذوق العربي الجاهلي الى ما بعده في الإعجاب بالمشية البطيئة المتأنية؛ لأنها أدل على الرزانة، وانسب بالمرأة المُنَعَّمَة واكشف عن جمالها))([47]).

وظهر هذا المظهر الجمالي في شعر الفقهاء في العصر الأموي كقول عورة بن أذينة:

فقمنَّ بطيئاً مشيهنَ تأوداً على قَضَبٍ قد ضاق منه خلاخلُهُ([48])

ويشبه أبو الاسود الدؤلي وهي تمشي ببطيء كالفيل المقيَّد في رجليه بقوله:

وليست بوكباء الصدار اذا مشت توكنٍ مشي الكودن المتحبسِ([49])

في الحقيقة أن أبا الأسود لم يحسن ولم يجمل الوصف حين شبّه مشية زوجته بمشية الفيل؛ لان الفيل مما لا يحسن ذكره في مقام الغزل فكيف يأتي به وهو مقيَّد، فالصورة فيها تناقض ولا تتلاءم مع رقة المرأة وجاذبيتها.

ويتحدث النعمان بن بشير عن امرأة تتثنى في مشيها الرشيق المتبختر ويشبهها برمح لدن يهتز بقوله:

اذا أقبلت فضلاً في الرداءِ تمشّى تأطّرَ اصلابُها
تأطَّر صعدةٍ مرانةٍ من الهيفِ مُتلَبسٍ غابُها([50])

ومن سمات الجمال الخُلُقي في المرأة الحياء والعفة, حيث تبدو لنا المرأة في شعر الفقهاء مُتَّسِمَةً بأسمى الفضائل و أجود الخصال إلى جانب جمالها و غناها مما يجعلها مثالاً نادراً في عالم الأخلاق الحميدة؛ فهي ولدت في أسرة مكرمة ملتزمة متأثرة بالأخلاق الإسلامية التي دعا إليها الإسلام, والفقهاء بحكم مكانتهم الدينية وواجبهم الشرعي يلزمهم التسامي والترفع وتأكيد المعايير الخُلُقية، وتمكين الجوانب الإنسانية الروحية في المجتمع الإسلامي الذي يبدأ من المرأة الملتزمة والمنضبطة بحدود الإسلام, فكانت لفتات الفقهاء الشعراء إلى هذا الجانب

---

[45] م.ن : 77 ().
[46] الغزل في العصر الجاهلي: 65 ().
[47] م.ن: 66 ().
[48] شعره: 256، وينظر: 217 ().
[49] ديوانه: 61 ().
[50] شعره: 84 ().

في المرأة بليغة في شعرهم, فالنعمان بن بشير الأنصاري ينطلق من وجهة نظره الفقهي في أن تكون المرأة عزيزة في بيتها مكرمة مصونة مكفية بخدمة الآخرين بقوله مخاطباً زوجته عندما ولي اليمن:

وأقني حياءك و أقعدي مكفيّةً إن كنتِ للرُّشد المُصبِّ هديتِ(51)

يشير هذا النص إلى إن المرأة قد أحيطت برعاية زوجها وحمايته فقد ((كان شأن المرأة في المجتمع الإسلامي المقر لتقاليد العروبة السليمة في نظره يختلف عن شأن الرجل؛ إذ الرجل هو الذي يغلب أن يكون هو المتعامل الذي يأخذ ويعطي, ويبيع ويشتري, ويدين ويستدين ويضرب في الأسواق بالتجارة ونحوها, أما المرأة فالشأن الغالب عليها إنها متصوِّنة مترفِّعة عن أن تلي بنفسها ما يكون فيه امتهان او تبذُّل, و قد جرت العادة بأن توكل إلى الرجال القيام عنها بمصالحها عن طريق التوكيل لالنقص فيها ولا لضعفٍ يُظنُّ بها ولكن تمكيناً لها من التصوّن والتحفظ وابتعاداً عما لا يتناسب مع مركزها))(52)، والنعمان هنا يطيع ما أمر الله به.

إن ما أمر به الإسلام الطهارة والحجاب، وإذا ما خَرَجَتْ المرأة لبعض شأنها أن تضرب بخمارها على صدرها؛ فلذلك يقول تعالى: ((**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ**))(53) وذلك كي لا يظهر شيء من مكشوف صدرها ولا زينة نحرها, فالمرأة المحجَّبة بالمئزر أو الصِّدار تستُر به بدنها دلالة على حيائها وعفتها وشدة محافظتها والتزامها بالأخلاق الإسلامية, ومن ذلك قول أبي الأسود الدؤلي في زوجته:

وليست بوكباء الصدار اذا مشت توكن مشي الكودن المتحبسِ(54)

ومن التزام زوجته مكثها في البيت، ولم تتزين إلا حين تدعوها المناسبة او يضطرها الواجب بقوله:

لها ولجةٌ في كلِّ بيتٍ وخرجةٌ تُحكَّكَ جنبَ الاجربِ المُتَمرسِ
من المُمسكاتِ لا ترى غير أنَّه متى حانَ يوماً زينةُ الناسِ تُلبِسِ(55)

ولعل الشاعر عروة بن أذينة يومىء الى طهارة النسوة ونقائهن في ضوء الحديث عنهن وهن يؤدين شعائر حج بيت الله، فنفسه تهفو الى الاثنين معاً بقوله:

لَبِثُوا ثلاثَ مِنىً بمنزلِ غِبْطَةٍ وهُمُ على غرضٍ لعَمْرُكَ ما هُمُ
ولَهُنَّ بالبيتِ العَتِيق لُبَانَةٌ والبيتُ يعرِفهنّ لَو يتكلَّمُ
لو كان حَيّا قبلَهنّ ظعائناً حيّا الحَطِيمُ وجُوههَنّ وزمزمُ
وكأنهنَّ وقد حَسَرْنَ لَوَاغِباً بَيْضٌ(56) بأكنافِ الحَطِيم مُرَكَّمِ(57)

ومن أخلاق المرأة ان تكون مُقتصدة في حديثها، وهي صفة جاهلية هذَّبها الإسلام وتمثلت بقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : ((ان أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمُتَشدّقون))(58).

وامرأة النعمان مُتمثِلة بالحديث الشريف، وفي ذلك يقول:

---

[51] شعره: 138 ().
[52] مركز المرأة في الاسلام: 51 ().
[53] سورة النور:31 ().
[54] ديوان ابي الاسود الدؤلي: 61 ().
[55] م.ن: 61 ().
[56] وردت كلمة (بيض) في القرآن الكريم في وصف الحور في قوله تعالى : ((**وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ**))، الصافات: 48، () .وفي قوله تعالى : ((**كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ**)) ، الواقعة:23 أي صفاء الدُّر في الأصداف والذي لم تمسكه الأيدي كناية عن الصوم وحفظ الشرف
[57] شعر عروة بن أذينة: 367- 368 ().
[58] سنن الترمذي: 4/370 ().

تجودُ لها نفسي بحلوِ حديثِها وتبذلُ بعدَ البُخلِ نَزراً مُترجماً([59])

فهي متمنّعة وإذا نطقت كان كلامها نزرا لا يكاد يبين، وتمنُّع المرأة وحياؤها من مكملاتها في نظر الرجل؛ لأنه دليل على عفّتها، ((وقد أعجب العرب بحياء المرأة؛ لان اخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة والإشادة بالمرأة المُستَكمِلة لصفات الأنوثة))([60])، ويشير النعمان الى تمنُّع زوجته وشدة حذرها واحتياطها بقوله:

غزالٌ راعه القُنّا صُ تحميه صياصيهِ
وما زلتُ أُفَدِّيهِ وأدنيه وارقيهِ
وأسعى في هواهُ أبــ داً حتىالاقيهِ
فبات الريمُ مني حذ راً زلت مراقيهِ([61])

ويؤكد الفقهاء الشعراء في العصرالاموي المثل الأعلى للمرأة, و هي ان تكون محاطة بسياج العفة و التصوَّن لا يستطيع احد ان ينالها او يصل الى حماها المتحصِّن فهي نافرة او وحشية لا يمكن صيدها كما قال عروة ا بن اذينة:

بَخِلَت رَقاشِ بوُدِّها و نوالِها سَقياً – و إن بخلت – لبُخل رَقاشا
ظَفِرت بودِّك اذ سَبَتك كأنها وحشِيَّة لا تَستَطيعُ حَواشا([62])

ويُمعن عروة ا بن اذينة في وصف حياء حبيبته و صاحباتها اللائي يصاحبنها بأنهن بِكرٌ عونٍ متزناتٍ, فإذا خرجن مُسرِعاتٍ حذِراتٍ؛ ليضفي عليهن البراءة والطهر ويبين إن علاقته بصاحبته لا تقف عند الإعجاب والحب وإنما التقديس والإجلال بقوله:

بِعُون عليهنَّ من بَهجَةٍ و حُسن غضاضَةِ أبكرِها
خَرَجنَ إلينا على رِقبَةٍ خُروجَ السَّحابِ لأمطارِها([63])

معاناة المُحِبّ أو وجده:

تميزت المرأة المسلمة بحسن أدبها وكمال خُلقها متأثرة بتعاليم الإسلام, متحفظة من مخالطة الرجال وإقامة العلاقات العاطفية معهم؛ لان النظام الأخلاقي في المجتمع الإسلامي يجعل ((الوصول الى المرأة مسألة لها

[59] شعر النعمان بن بشير: 120 ().
[60] الغزل في العصر الجاهلي: 75 ().
[61] شعر النعمان بن بشير: 163- 163 ().
[62] شعر عروة بن أذينة: 174 ().
[63] م.ن: 219 ().

أصولها و قواعدها))([64]) وان هذا الواقع الاجتماعي بما يفرضه على الشاعر المُحب من الحرمان في تحقيق علاقته بالمرأة في الواقع الخارجي؛ جعله يسعى الى تحقيق تلك العلاقة عن طريق الشعر الملتزم, وان شدة الحب والشوق احياناً تقود الشاعر الى نوع من التغاضي لذلك النظام يتجسد في القاء السلام على المحبوبة ((وكان الشاعر اذا سلم عليها عرف انه يهواها وقد يسلم عليها وان كان في السلام يأس منها وهذا من شدّة شوقه وغلبة هواه))([65]). فالشاعر عروة ا بن اذينة قد كُلِف بحبيبته واراد ان يسلِّم عليها وفي الوقت نفسه كان يخشى ألا تُقضى, و قد تحقق هذا الحدس؛ لأنها لم ترد التحية؛ لان هناك عوائق يقيمها المجتمع, والشاعر نفسه مسلم بقوله:

لما عَرضْتُ مُسَلِّماً لي حاجَةٌ ... أرجُو مَعونَتَها وأخْشَى ذلها
مَنَعَتْ تَحِيَّتَها فقلتُ لصاحِبِي ... ما كان أكْثَرها لنا وأقَلَّها
فدنا فقال: لَعَلَّها مَعْذُورةٌ ... من أجل رِقْبَتِها فقلتُ: لَعَلَّها([66])

وفي قول اخر له:

قالتْ و أَبْثَثْتُها وَجْدي فبُحْتُ به ... قد كُنْتَ عندي تحبُّ السِتَّرَ فاستترِ
ألسْتَ تُبصِرُ مَن حَولِي فقلْتُ لها ... غَطَّى هواكِ وما ألقَى على بصري([67])

تعذب الشاعر بهذا الحب لانه لايملك من امر قلبه شيئاً وكان يعيش في مجتمع لا يستوعب موقفه, فكان لابد ان يتعامل مع ما يسميه بالستر؛ بل ان محبوبته نفسها تخشى عليه فتخاطبه بفعل الامر ((استتر)).

وقد يضطر الشاعر الى البوح والكشف عن عاطفته لتأجُّج نار حبه وشدّة شوقه في محاولة الوصول الى المحبوبة وإن كان ذلك تجاوزا للعُرف، و((من اسباب الكشف غلَبة الحب وتسوُّر الجهل على الحياء، فلا يملك الإنسان حينئذٍ لنفسه صرفا ولا عدلا وهذا ابعد غايات العشق واقوى تحكُّمه على العقل حتى يمثلا الحسن في تمثال القبيح والقبيح في هيأة احسن ... وكم من مصون الستر مُسبل القناع مسدول الغطاء قد كشف الحب ستره واباح حريمه فصار بعد الصبابة علما وبعد السكون مثلاً ...))([68]) ، فالشاعر عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي على ورعه وتقواه ونسكه قد عانى حبا عنيفا جهد جهده في كتمانه ولكنه لم يفلح؛ لان سلطان الهوى كان اقوى، وحكم الهوى كان امضى مِن إرادته فظهرت عليه أعراضه وبانَ سِرُّهُ بين الناس ،فمن لائم لا يُقدِّر، ومن كاشح مغرٍ بالنميمة ظلما وشماتة؛ حتى صار الشاعر يتمنى الموت ليستريح من العناء، فإن حياته اصبحت عبثاً لا معنى له ولا طعم .. فتغلَّبت عاطفة الفقيه على فقهه، فيستنكر على نفسه هجران حبيبته وهو يعلم ان زيارتها في الشرع أثم، ثم لا يملك إلا ان ينقاد لحبه فيقول: ((ان هجران الحبيب هو الإثم)) وذلك في مقطوعته:

كتمتَ الهوى حتى أضرَّ بك الكَتْمُ ... ولامك أقوامٌ ولومُهُم ظلمُ
ونمَّ عليك الكاشحون وقيل ذا ... عليك الهوى قد نمَّ لو نفع النمُّ
ألاَ مَنْ لنفسٍ لا تموت فيَنقضي ... عَناها ولا تحيا حياةً لها طعمُ
أأترُك إتيانَ الحبيب تأثُّماً ... ألاَ إنّ هِجْرانَ الحبيب هو الإثمُ
فذُقْ هجرَها قد كنتَ تزعُم أنه ... رشادٌ ألاَ يا ربّما كذَب الزَّعْمُ([69])

ووجد الشاعر النعمان بن بشير نفسه غير قادرة على الكتمان وحتى لو كتم يوما فانه سوف يبديه بقوله:

---

[64] الشاعر الاسلامي تحت سلطة الخلافة: 317 ().
[65] الحب عند العرب: 137 ().
[66] شعره: 363- 364 ().
[67] م.ن: 323 ().
[68] طوق الحمامة: 39 ().
[69] الاغاني:9/173- 174 ().

فبحت اليوم بالأمر الّـ لَذي قــد كنت تخفيـــــــهِ
فَإن أكتمه يوماً فإني سوف أبديهِ([70])

فالفقهاء اظهروا وجدهم ومعاناتهم من دون ان تقيدهم عقيدتهم؛ لأنهم لا يجدون غضاضة في ذلك.ان الحب الذي عانى منه الفقهاء الشعراء في العصر الأموي حيٌّ وأصيل لما سمي بالحب العذري ((الذي هو ظاهرة من الظواهر الفنية التي ترتبط اشد الارتباط بالظواهر الاجتماعية ... نشأ عن التقاء عنصرين اثنين: اولهما العاطفة الدينية والثاني الميول الجنسية، في نفس المؤمن الذي حسن ايمانه وقوي يقينه، أما الغزل العذري فهو التعبير الفني الشعري عن هذا الحب .. انه هذه الثروة الشعرية التي خلَّفتها لنا النفوس المحبة التي تذرَّعت بالايمان واحتمت بالعفة))([71]) ، فالإسلام هذّب الشعراء وأبعدهم عن الماديات ودعاهم الى التسامي الروحي ((وكان لابد للمؤمنين الأعفة الذين خفقوا في حبهم في ان يعبروا عن هذا الاخفاق وان يتحدثوا عنه في هذه الصورة او تلك، ومن هنا وجدوا في الفن القولي سبيلا الى التعبير عن مشاعرهم ... وعواطفهم المتعفِّفة والمُلتَهِبَة في آنٍ واحدٍ والتي وجدت ان هذا التعويض الفني هو خير ما تطفىء به لهبها وتتسامى في غرائزها)) ([72]).وظهرت التجربة الروحية النقية المتأثرة بروح الإسلام عند الفقهاء الشعراء في العصر الأموي، فاتصف شعرهم بالعذرية وتميز ((بالحرارة المُلتَهِبَة والديمومة الدائمة والعفة المحصَّنة ومن هذه الاقانيم الثلاثة يتألف جوهره وتقوم ذاته انه يجمع بين هذه الصفات جميعا في نفس واحدة، ثم يجعلها تأنِ وتشكو وتتضرع وتتلوى))([73]). فقد أحبَّ الفقيه الشاعر عروة ا بن أذينة حبا عذريا عفيفا فقال فيه الشريف المرتضى: ((وكان عروة بن أذينة مع تَغزُّلِهِ يُوصّف بالعَفاف والنَزاهة))([74])، ومن غزله الذي علا بمرتبته على المحبين حين لم يُشهر بنفسه وبمن يحب قوله:

إنَّ التي زعمَتْ فُؤادَك ملّها خُلِقَتْ هَواكَ كما خُلِقتَ هوًى لها
فَيكَ الَّذِي زَعَمَتْ بها وكلاكُما يُبدِي لِصاحِبه الصَّبابةَ كُلَّها
ويَبِيتُ بين جَوانِحي حُبٌّ لها لو كان تحت فِراشِها لأَقَلَّها
ولعمرُها لو كان حبُّك فوقها يوماً وقد ضَحِيَتْ إذاً لأظلَّها
وإذا وجدتُ لها وَساوسَ سَلْوَةٍ شَفَع الفُؤادُ إلى الضَّمير فسلَّهَا
بيضاءُ باكَرَها النَّعِيمُ فَصاغَها بِلَباقَةٍ فأَدَقَّها وأَجَلَّها
لما عَرضْتُ مُسَلِّماً لي حاجَةٌ أَرجُو مَعونَتَها وأَخْشَى ذُلَّها
مَنَعَتْ تَحِيَّتَها فقلتُ لصاحِبِي ما كان أَكْثَرها لنا وأَقَلَّها
فدنا فقال: لَعَلَّها مَعْذُورةٌ من أجل رِقْبَتِها فقلتُ: لَعَلَّها([75])

وقصة هذه القصيدة تلقي ضوءا على هذا الحب، فقد روى عروة بن عبيد الله بن عروة الزبيري انه قال: ((كان عروة ا بن أذينة نازلا في دار أبي بالعقيق فسمعته يُنشد لنفسه:

إنَّ التي زعمَتْ فُؤادَك ملّها خُلِقَتْ هَواكَ كما خُلِقتَ هوًى لها

[70] شعره: 164 ().
[71] تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: 250- 253، وينظر: الحب العذري نشأته وتطوره (المقدمة) ، د ().
[72] م.ن: 253 ().
[73] م.ن: 254 ().
[74] أمالي المرتضى: 1/413 ().
[75] شعره: 360- 634 ().

قال: فأتاني أبو السائب المخزومي قلت له بعد الترحيب به: ألكَ حاجة، فقال: نعم، أبيات لعروة بلغني أنك سمعتَه ينشدها، فقلت له: وأيةُ أبيات، فقال: وهل يخفى القمر قوله: ((إن التي زعمت فؤادك ملّها)) فأنشدتُهُ إياها فلما بلغت إلى قوله:

مَنَعَتْ تَحِيَّتَها فقلتُ لصاحِبِي ما كان أكْثَرها لنا وأقَلّها
فدنا فقال: لَعَلَّها مَعْذُورةٌ من أجل رِقْبَتِها فقلتُ: لَعَلَّها

قال: أحسن واللهِ، هذا واللهِ الدائم العهد الصادق الصبابة، لا الذي يقول:

إن كان أهلك يمنعوكِ رغبةَ عنّي فأهلي بي أضنُّ وأرغبُ

لقد عدا هذا الاعرابي طوره،واني لأرجو أن يغفر الله لصاحبك – يعني عروة- لحسن ظنه بها وطلبه العذر لها.قال: فعرضت عليه الطعام، فقال: لا واللهِ، ما كنت لآكل بهذه الأبيات طعاما إلى الليل، وانصرف))([76]).إنَّ ((هذا الشعر العذب الرقيق الذي شغل الغزليين والمغنّين والأدباء وشاع بينهم له شبه ونسب بشعر عمر بن أبي ربيعة والعرجي، من حيث السلاسة والرقة والعذوبة والجمال، كما له نسب من حيث عفته وسمو أغراضه بشعر البادية، كشعر جميل بن معمر وعروة بن حزام ...))([77])، فأعجب به أبو السائب المخزومي وملأ شغاف قلبه فهزّه الطرب ولعبت برأسه نشوة الغزل؛ فيدعو لعروة ان يغفر الله ذنوبه، فكان عروة صادقا في حبه الدفين انه حب مهذّب راسخ الجذور يمثل نفسية صاحبه القوية بالعلم والتقوى، وبيئته المترفة والمتحضرة الراقية التي ملأت قلوب ابنائها حبا بالجمال والظرف؛ فعروة ا بن أذينة ذو ادب رفيع؛ إذ يتحدث عما زعمته حبيبته من ملاله لها، يرد على ذلك بأقوى حجة، في ألطف عبارة وهي: انهما خلق احدهما هوى للآخر، وليس عند الآخر إلا المودة كل المودة، وهما لا يُقتّران في هذه المودة، وانما يفيضان بها فيضا، فلا مجال للخلل بينهما؛ لأن الذي بينهما ((الصبابة كلها)) وبما انه يحتاج الى دليلين قائمين على التعامل مع الخيال المرتبط بالصورة بوصفها اداة للخيال بحيث يمكننا من أن نتخيل أنّ جوانحه تضم نوعا فرديا من الحب وله من القدرة اذا كان تحت فراشها هزّها وارعدها، ثم يسترسل في رسم الصورة الخيالية ويقابل بينهما وبين الصورة السابقة فيقول بعد ان يدللها بكلمة ((ولعمرها))، وان هذا الحب نفسه لو كان فوقها في يوم من الأيام وقد أدركتها شمس الضحى لكان لها مظلة، ثم يؤكد لها أن هذا الحب نفسه اذا كانت الوساوس تأتي لكل إنسان فإنها لن تجد طريقا إليه؛ لان القلب موكل بها، وبعد ان ردَّ الشاعر على الوهم الذي خامر المحبوبة انتقل الى حالة فرح في البيت السادس، فكانت حالة الوصف، وهي حالة تعتري المحبين بعد ان تتدلل الفتاة بان صاحبها لا يحبها، يدخل مرحلة استرضائها بالحديث عن الاشياء التي تحبها وهنا يبدأ حديثه بكلمة ((بيضاء))؛ وهي لا تعني اللون بقدر ما تعني النقاء والطهر والترف؛ وهو يريد ان يؤكد أنها لم تُخلَق كالناس وإنما صاغها كأروع ما تكون ولم يسهب بالوصف؛ لأنه لم يرغب بما يرغب فيه الشعراء الحسّيون من التركيز على المحاسن فهو يكتفي باللمحة ويقتنع بالاشارة ويوجز ما وسعه الإيجاز بعيدا عن الصراحة والجرأة في الوصف؛ لان علاقته بها روحية، ثم يأتي الى التسليم كعادة المحبين للإفضاء بحاجات النفس ثم الاعتذار عن التحية التي حرمته منها([78])، والحاجة عند المحبين هي ((عاطفة في غاية الإبهام، انها اساس في جملة اسس تقوم عليها عواطف الحب لكونها في الأصل حبا جنسيا ولكنها انتهت بان ضخّمت الحبيب والصورة التي يتخيلها عن محبوبته باضفائها على هذه الأشياء النائية البعيدة المنال))([79])، كما ظهر في قول عروة ابن أذينة:

على الياسِ من حاجة أضمِرتْ فشَقَتْ عليكَ باضمارِها([80])

وقوله:

---

[76] زهر الآداب: 1/208- 209 ().

[77] شعره: 37- 38 ().

[78] ينظر: أدب الفقهاء: 24- 25، وينظر: دراسات في النص الشعري، عصر صدر الإسلام وبني أمية: 314 – 315 ().

[79] الغزل عند العرب: فادية جان كلود، ترجمة: ابراهيم الكيالي: 90- 91 ().

[80] شعره: 214، وينظر: 312 ().

فقد كنتَ تلقاها وفي النفسِ حاجةَ على غيرِ عين خالياً فتَهابُها([81])

وقول النعمان في زوجته:

فصدَّت وما ردَّتْ عليَّ تحيةَ وضنّت على ذي حاجةٍ ان تَكلّما([82])

وتظهر مثالية الحب وعفته في غزل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي الذي أُقِيمَتْ حواجز بينه وبين من عشقها فتولّع بها واغرم غراما شديدا لم يستطع سلوه فاتجه الى الغزل لينفس عمّا في نفسه([83]) بقوله:

((تغلغلَ حُبُّ عَثْمةَ في فؤادي فباديه مع الخافِي يسيرُ
تغلغل حيث لم يَبْلُغْ شرابٌ ولا حُزْنٌ ولم يبلُغ سرورُ
شَقَقتِ القلبَ ثم ذَرَرْتِ فيه هواكِ فَلِيمَ والتأمَ الفُطُورُ
أكاد إذا ذَكرتُ العهد منها أطير لَوَ أنّ إنساناً يَطير
غَنِى النفسِ أنْ أزدادَ حبًّا ولكنّي إلى صِلَةٍ فَقير
وأَنْفَذ جارِحاكِ سوادَ قلبي فأنتِ عليَّ ما عِشنا أميرُ

فقيل له: أتقول في مثل هذا؟ قال: في اللدود راحة المفؤود))([84]).

في هذه الأبيات يصف عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود استحكام امر الهوى وشدّة تسلطه على قلبه وتمكُّنه من عقله، فيقول: ((شققت قلبك وجعلت هواك ذررا فيه فرسخ في جوانبه بعد ان دبَّ في مسامه وخوالجه ثم جمعت فتُوقَه حتى التأمت شقوقه فتوصل الهوى منه الى حيث اعجز كل سرور وحزن، والمعنى ان الهوى ملكَ مجامع قلبه فأحمى منه ما كان محرما على غيره))([85]).وهذا طبيعي من فَقيه؛ بل هو من كبار الفقهاء في عصره ألا تلمَّ به نزوات الجسد او الرغبات والّذائذ المادية فهو متمسك بدينه وعفاف طبعه مهتم بحكاية خواطره وما يلاقيه من نصب وتعب في حبه، فشعره تحليل لنفسيته ((وتعميق ذاته اكثر من تحقيق لذاته فاخذ الحب في الحياة الاسلامية يتمدد داخل الحياة النفسية باكثر مما كان يتسلط خارجها، ان هذه الحياة الجديدة جلعت منه تعرُّفا الى اسرار النفوس اكثر مما جعلت منه اشباعا لغرائزها))([86])، فعبيد الله استشهد بفقهاء المدينة الستة([87])، وهو سابعهم وكأنه يريد العذر لنفسه؛ لان الفقهاء يجيزون له ما يعبر عنه في شعره بقوله:

---

[81] م.ن: 271 ().

[82] شعره: 123 ().

[83] ينظر: الشعر والغناء في المدينة ومكة: 36 ().

[84] الاغاني: 9/176، وزهر الاداب: 1/212 ().

[85] شرح ديوان الحماسة: 3/354 ().

[86] تطور الغزل: 191 ().

[87] الفقهاء الذين ذكرهم في شعره هم: ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، والقاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق، وعروة بن الزبير بن العوام، () سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وخارجه بن زيد بن ثابت، وهم الفقهاء الذين انتهى اليهم العلم في المدينة، ينظر: طبقات الفقهاء: 39- 40.، وينظر: العبر في خبر من غبر: 85- 100.

((أحِبُّك حبًّا لو علمتِ ببعضه لَجُدْتِ ولم يَصعُبْ عليكِ شَديدُ
وحُبُّكِ يا أُمَّ الصبيِّ مُدَلِّهي شَهيدي أبو بكر وأني شهيدِ
ويعلم وَجْدِي القاسمُ بن محمد وعُرْوَةُ ما ألقَى بكم وسَعيدُ
ويعلم ما أُخْفِي سليمانُ علمَه وخارجةٌ يُبْدِي لنا ويُعيدُ
متى تَسألي عمَّا أقول فَتُخْبَري فللحبِّ عندي طارفٌ وتَلِيدُ

فبلغت أبياته سعيد بن المسيب فقال: واللهِ، لقد أمِنَ أن تسألنا وعلم أنها لو استشهدت بنا لم نشهد له بالباطل عندها))([88])، فقد عبر الشاعر عن المُثل العليا للحب العفيف ((ومن هذه المُثل ان يكون المحب كلِفا بحبيبته وان يهواها بعين قلبه لا بعين هواه، قلبه الطاهر البريء، لا هواه العابث الساخر هوى تزيده الجفوة قوة و يزيده البعاد قربا وان يكون مغرما مندفعا متيما .... وان يكون مجاهدا بما تحوي كلمة الجهاد من عزم وصبر فهو يجاهد هوى النفس حتى يكون بريئا خالصا))([89]).ومن ملامح الغزل العفيف في شعر الفقهاء في هذا العصر انهم ((اشتركوا في الاخلاص لامرأة واحدة ظلوا يتعشَّقونها بروحانية رفيعة فجاء شعرهم صورة غزلية غنائية مثالية للمرأة التي احبوها))([90]) .فأصبحت مادة فنّية ملهمة للشاعر فعاشت في خاطره وعلقت في ضميره فقال فيها شعره، وفي ذلك يقول عروة :

ومن حبِّ سُعدى لا اقولُ قصيدةً ارشحها ألا لسُعدى شبابُها([91])

وقوله:

وسُعدى أحبُّ الناسِ شخصا لو أنها إذا اصقبت زيَّرت واجدى صقابُها([92])

وقوله:

لها مُهلٌ من ودِّنا ومحلةٌ من القلبِ لم تُحلل عليها شِعابُها([93])

ويرى عروة حبيبته مثالا لا يرقى اليه احد وهذا ما يزيده تمسكًا بها بقوله:

ويزيدُها ايضا عليَّ كرامةً إنّي وربِّكَ لا ارى امثالها([94])

ويرى الحياة جميلة برضاها والدنيا مكدرة بعدم رضاها بقوله:

يصفو لنا العيشُ والدنيا اذا رضيتْ وقد تُكَدَّرُ ما لم ترضَ دنياها([95])

---

[88] الاغاني: 9/173 ().
[89] الغزل عند العرب، حسان ابو رحاب: 170- 171 ().
[90] صورة المرأة في الشعر الأموي: 29 ().
[91] شعر عروة بن أذينة: 270 ().
[92] م.ن: 268 ().
[93] م.ن: 271، وينظر: 139، 272 ().
[94] م.ن: 146 ().
[95] م.ن: 129، وينظر: 269 ().

وحب سُعدى باقٍ لا تمحوه السنون واختلاف الاعمار؛ بل يزداد تجليا وانكشافا بقوله:

علُقتُك ناشئاً حتى رأيتِ الرأسَ مبيضا([96])

وقوله:

وكلُّ هوى دانَ عني زمانا له من بعد ميعتهِ تجلّي([97])

وكم حاول الشاعر منع صلته بها ونسيانها ولكنه اخفق ووقع في حبها بقوله:

خُدَّت نبالي عنها وما نفعتْ والْحِقتْ بالفؤادِ اسهُمُها([98])

وصار حد يث الشاعر عن عالمه الداخلي لا ينفك عن لواعج القلب وأشجانه المُمِضة ومكابدة الشوق والحنين الى المحبوبة البعيدة، وان الشوق الذي يفيض به قلب الشاعر يملأ عينيه بدموع تفيض دون ان يسيطر عليها اذا طرق اسم المحبوبة، او خطرَ خيالُها في ذاكرته، وان ذكر المحبوبة يقود ه الى تداعي الذكريات السعيدة في أيام الوصال الماضية، الأيام التي تولَد سريعة كومضة برق في حياته فهو ((يذكرها في حسرة تشوبها لذَّة، وفي عزة تخالطها كآبة .... فهو محب ولكنه محروم يعتز بماضيه ويستريح الى أحاديث الصبابة))([99]) .

فالشاعر عروة ا بن أذينة يتذكر حب سُعدى وأيامه الأولى معها بحسرة وعبرة بقوله:

أمن حبِّ سُعدى وتذكارها حبستُ تَبَلُّدَ في دارها

مديما ونفسكِ معنيةً تكاد تبوح باسرارها([100])

وقوله:

فلقد بكتها العينُ حيناً كلما ذكرتُ سُعيدةَ راجعت تُهَماً لها

معنيةً تذري الدموع صبابةً بعد العزاءِ وترى البكا أشفى لها([101])

ومن قوله في الحنين الى الشباب الذي يُذكِّره بأيام سُعدى:

في ميعةٍ من شبابٍ غُرُبهُ عجبٌ لو كان يرجعُ غضَّا بعد ادبارِ([102])

وقوله:

ألا حبذا كيف كان الهوى سعادُ وسالفُ إعصارِها

وشرخُ الشبابِ الذي فاتنا ودنيا تولَّت بإدبارِها([103])

---

[96] () 337 م.ن:.

[97] () 353 م.ن:.

[98] () 76 شعره:.

[99] () 178 الغزل في العصر الجاهلي:.

[100] () 265- 351 شعره: 213، وينظر:.

[101] () 135 م.ن: 147، وينظر: شعر النعمان بن بشير الانصاري:.

[102] () 197 شعره:.

[103] () 214 شعره:.

وتثير ديار الحبيبة وأثارها الذكريات في نفس الشاعر؛ لأنها مثوى الحبيبة، وكل اثر من أثارها حبيب الى نفسه، فوجودها اقترن بوجود الحبيبة بمرور الأيام صارت الحبيبة وديارها وحدة متماسكة الأجزاء، فإذا كان جزء قد رحل فان الجزء الآخر قد حلَّ محله([104]).فالنعمان بن بشير الأنصاري يتذكر زوجته وهو بعيد عنها فيتشوق اليها ((ويذكرها حين يذكر الديار ويحنُّ الى المرابع، ويذكرها حين يتشوق الى اهله وموطنه اذ يكون بعيدا في اليمن او في انحاء من الجزيرة))([105])، وهذا دليل على ارتباط الشاعر بالأرض ((فتظهر قيمتها لديه بوصفها جزءا من وجدانه وذاته تشدّه للمرأة التي فيها))([106]) ومن قوله في ذلك:

أمنِ إن ذكرتَ ديار الحبيـــ بِ عاد لعينيك تساكبُها
فبتَّ العميدَ ونامَ الخليـــ ي واعتاد نفسك اطرابُها([107])

وقوله:

أهيَّجَ دمعَك رسمُ الطللْ عفا غيرَ مطّـــــــــــردٍ كالخِـــلـــــــلْ
نعم فاستُهلّتْ لعرفانِهِ سِراعا وجادتْ بفَيْـــــضٍ سَبَـــــــل
ديار الأَلوف وأترابِها اذا أنـت ملحـــــــبٌ كالمـــخبَل([108])

وقول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي في زوجته عثمة:

عَفَتْ أطلالُ عَثْمةَ بالغَمِيم فأضحتْ وهي مُوحِشةُ الرُّسومِ
وقد كُنَّا نَحُلُّ بها وفيها هَضِيمُ الكَشْحِ جائلةُ البَرِيمِ**([109])**

وتتعالى هذه النغمة الحزينة الباكية التي مبعثها الرسوم واثار ديار الحبيبة وربوعها عند الشاعر عروة ا بن أذينة بقوله:

أَفي رُسومِ مَحَلٍّ غَيرَ مَسكونِ مِن ذي الأَجارِعِ كادَ الشَوقُ يُبكيني([110])

وقوله:

يا ذا العُشَيرَةِ قَد هِجتَ الغَداةَ لَنا شَوقاً وَذَكَّرتَنا أَيّامَكَ الأَوَلا
ما كانَ أَحسنَ فيكَ العَيشَ مُؤتنِقاً غَضّاً وَأَطيَبَ في آصالِكَ الأُصُلا([111])

وقوله:

---

[104] ينظر: دراسات في علم النفس الأدبي: 56 ().
[105] شعر النعمان بن بشير: 57 ().
[106] صورة المرأة في الشعر الأموي: 29 ().
[107] شعره: 137 ().
[108] م.ن: 105. ملحب: يعني من الحب ().
[109] الاغاني: 9/175، البريم: الخلخال ().
[110] شعر عروة بن أذينة: 111، وينظر: 351 ().
[111] م.ن: 349- 350، ينظر: 308 ().

أَهاجَتكَ دارُ الحَيِّ وَحشاً جَنابُها ... أَبَت لَم تُكَلِّمنا وَعيَيَّ جَوابُها
نَعَم ذَكَّرَتنا ما مَضى وَبَشاشَةً ... إِذا ذَكَرَتها النَفسُ طالَ اِنتِحابُها
وَعَيشاً بِسُعدى لانَ ثُمَّ تَقَلَّبَت ... بِهِ حِقبَةٌ غالَ النُفوسَ اِنقِلابُها([112])

وأن هذا الوفاء لذكر المحبوبة ليصاحب الشاعر المحب طوال حياته وان زعم في بعض الوقت انه قد سلا بتتابع الأعوام وتقدم السن، فالصبابة تعاوده في كبره، وتحدوه الى هذا الغزل العفيف كقول عروة ا بن أذينة:

أَحبِب بِأَودِيَةِ العَقيقِ لِحُبِّها ... وَالعَرصَتَينِ وَبِالمُشاشِ مُشاشا
لَمّا وَقَفتَ بِهِنَّ بَعدَ تَأَنُّسٍ ... ذَرَفَت دُموعُكَ في الرِداءِ رَشاشا
وَلَرُبَّ سالٍ قَد تَذَكَّرَ مَرَّةً ... شَجواً فَأَجهَشَ أَو بَكى إِجهاشا
أَمسى إِذا ذُكِرَت يُحادِثُ نَفسَهُ ... وَإِذا نَأَت لَقِيَ الهُمومَ غِشاشا
شَوقاً تَذَكَّرَهُ فَحَنَّ صَبابَةً ... لَمّا أَرادَ عَنِ الصِبا إِفراشا([113])

وتثير النار التي توقدها حبيبة عروة بن أذينة شوقه بعد سلوه بقوله:

وَقَد هاجَ شَوقَكَ بَعدَ السُلُوِّ ... مَشبوبَةٌ مِن سَنا نارِها([114])

وهاج سجع الحمام شوق أبي الأسود الدؤلي وأذكى وجده بقوله:

وَساجِعٍ في فُروعِ الأَيكِ هَيَّجَني ... لَم أَدرِ لِم ناحَ مِمّا بي وَلِم سَجَعا
أَباكِياً إِلفَهُ مِن بَعدِ فَرقَتِهِ ... أَم جازِعاً لِلنَوى مِن قَبلِ أَن تَقَعا
يَدعو حَمامَتَهُ وَالطَيرُ هاجِعَةٌ ... فَما هَجَعتُ لَهُ لَيلاً وَلا هَجَعا([115])

[112] م.ن: 853- 259، وينظر: 75، 112، 125، 177، 191، 351، 376، 380 ()
[113] م.ن: 175- 176- 177 ()
[114] م.ن: 216 ()
[115] ديوانه: 158 ().

عبر الشاعر عن حزنه العميق؛ اذ وجد في سجع الحمام نوعا من التناسب النفسي بين نوحه وبكائه على حبيبته وبين نوح الحمامة وشجوها على فرخها الضائع الذي لا يعود، فالحبيبة عنده يمكن ان تكون بديلا للهديل المفقود الذي لا يرتجى أوبته([116]) او ((بوصفها مكافئا خارجيا لانفعاله الداخلي من حيث هي الشجى الذي يبعث الشجى))([117]).ويبرز طيف الحبيبة في شعر الفقهاء وهو الهاجس المتسلط الذي يعززه القلق والحرمان واليأس فالطيف يخلق اللهفة والشوق والمحبة، ويستدعي الشاعر الطيف ليكون مؤنسا وهميا يحقق من خلاله ما لم يتحقق له حقيقة([118])، فعروة بن أذينة يزوره طيف حبيبته بهيأتها ويلهو معها وكأنها معه بيقضته بقوله:

سَرى لَكَ طَيفٌ زارَ مِن أُمِّ عاصِمٍ فَأَحبِب بِهِ مِن زَورِ جافٍ مُصارِمِ
فَبِتُّ قَريرَ العَينِ أَلهو بِغادَةٍ طَويلَةٍ غُصنِ الجيدِ رَيّا المَعاصِمِ([119])

وقوله:

طَيفٌ إِذا لَم يَدنُ مِنكَ رَأَيتَه في زَيِّها مُتَمَثِّلاً تِمثالَها([120])

ان رؤية الشاعر التي تستحضر المرأة بهذه الصورة إنما هي تعبير عن حاجة قوية تحتدم في النفس القلقة البائسة التي ترضى بطيف يمر وقد حمل معه الحبيبة النائية([121]).

الشكوى من الوشاة:

وسمة أخرى من سمات الغزل العفف في شعر الفقهاء الحديث عن الوشاة الذين هم نذر شؤم وفراق، ومن ذلك قول النعمان بن بشير الأنصاري:

فَأَمسى الوُشاةُ غَيَّروا وُدَّ بَينِنا فَلا صِلَةً تُرعى لِدَيَّ وَلا قُربا
جرى بَينَنا سَعيُ الوُشاةِ فَأَصبَحتُ كَأَني وَلَم أُذنِب جَنيتُ لَها ذَنبا([122])

ومن قول عروة ا بن أذينة:

صَرَمَت سُعَيدَةُ وُدَّها وَخِلالَها مِنّا وَأَعجَبَها البِعادُ فَما لَها
سَمِعَت مِن الواشي البَعيدِ بِصُرمِنا قَولاً فَأَفسَدَها وَغَيَّرَ حالَها([123])

وقوله:

وَأَتَت رِضى أَعدائِها بِصَديقِها عَمداً لِتَقطَعَ وُدّها وَدَلالَها([124])

---

[116] ينظر: الملامح الرمزية في الغزل العربي الى نهاية العصر الأموي: 162 ().
[117] الغزل العذري دراسة في الحب المقموع: 47 ().
[118] ينظر: اتجاهات الغزل في عهد الطوائف: 232 ().
[119] شعره: 229- 231 ().
[120] م.ن: 146 ، وينظر: 264 ().
[121] ينظر: ملامح الغزل العربي: 354- 355 ().
[122] شعره: 136، وينظر: 121- 123 ().
[123] شعره: 139، وينظر: 75، 139، 141، 145، 288، 289، 346 ().
[124] م.ن: 149 ().

وصار الشاعر يحس في نفسه شوقا مبرحا واضطرابا دائما لا يجد السكون، وقيل ان المحبة هي: ((سكون بلا اضطراب واضطراب بلا سكون، يضطرب القلب فلا يسكن إلا الى محبوبه ، ولا يضطرب شوقا إليه حتى يسكن عنده))([125])، ولكن الشاعر لا يجد الى ذلك السكون سبيلا؛ لأنه أمر صعب لايواتيه ولا طاقة له بتحقيقه فيظل فؤاده مضطربا، ونفسه حائرة لا القرب يشفيه ولا البعد يُسليه، ومن ذلك قول عروة ا بن أذينة:

لا بُعدُ سُعدى مَريحي من جَوى سَقَمٍ يَوماً وَلا قُربُها أَن حُمَّ يَشفيني
أَمسَت كَأُمنِيَةٍ سُعدى مُلاوِذَةً كانَت بِها النَفسُ أَحياناً تُمَنّيني([126])

وقوله:

إِذا اِقتَرَبَت سُعدي لَجَجتَ بِهَجرِها وَإِن تَغتَرِب يَوماً يَرُعكَ اِغتِرابُها
فَفي أَيِّ هذا راحَةٌ لَكَ عِندَها سَواءٌ لَعَمري نَأيُها وَاِقتِرابُها([127])

ويعيش الشاعر عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي بهمٍّ دائم لا يريم ولا يتزحزح، متواصل في غدوه ورواحه بقوله:

أروحُ بهمٍّ ثم أغدو بمثلهِ ويحسبُ أني في الثيابِ سليمُ([128])

ويظهر سعي الوشاة في تغيير ودِّ الحبيبة فأصبحت لا تنجز وعدا ولا تحقق ودّاً وصفاء متواصلا، وإنما شأنها التسويف في المواعيد والتقلّب في العيش، ومن ذلك قول عروة ا بن أذينة:

أَجَرَّتكَ حَبلِكَ في حُبِّها فَطالَ العَناءُ بِأَجرارِها([129])

وقوله:

فَبَتَّت قُوى الحَبلِ مَصبوبَةً عَلى نَقضِها بَعدَ إِمرارِها([130])

وقوله:

يَعِدنَ مَواعِدَ يَلوينَها فَلا بُدَّ مِن بَعدِ إِنظارِها
فَلَو مُعسِراتٌ فَيَدفَعنَنا بِعُسرٍ عَذَرنا بِأَعسارِها
وَلكِن يَجُدنَ فَيَمطُلنَنا بِلَيِّ الدُيونِ وَإِنكارِها([131])

---

[125] روضة المحبين ونزهة المشتاقين:19 ().
[126] شعره: 115 ().
[127] شعره: 265 ().
[128] الاغاني: 9/173 ().
[129] شعره: 218 ().
[130] م.ن: 216، وينظر: 141 ().
[131] م.ن: 220 ().

وقوله:

عِشنا بِه زَمناً كَظِلِّ سَحابَةٍ ... مَرَّت وَلَم يَنفَعكَ شَيمُكَ خالَها
وَبِلا وَلا وَلَقَد وَحَتّى مَرَّةً ... تَقريبَها وَبِعادها وَمِطالَها
تَدنو فَتُطمِع ثُمَّ تَصرِفُ قَولَها ... يَأساً فَيَقطَعُ صُرمُها إِجلالَها
تَلقى بِها عِندَ الدُنُوِّ زَمانَةً ... وَتُريكَ ما شَحَطَ المَزارُ خَيالَها[132]

وقول النعمان بن بشير الأنصاري:

فَكَيفَ وِصالُكَ ذا خُلَّةٍ ... قَليلَ النَوالِ كَثيرَ العِلَل[133]

وقوله:

يَطولُ عَلَيَّ اليَوم دونَ لِقائِها ... وَتَهجُرَني حَولا جَديداً مُجَرَّما[134]

ويحرص الشاعر في شعره على إظهار لذَّة الألم التي تصل به الى اهلاكه واقتتاله في سبيل وصال مَن لا سبيل الى وصالها وهذه أسمى ملامح العذرية فالصبر على ما يلقاه المحب من هجر الحبيب وصده ... فالمحب يصارعه الضجر؛ لأنه واقع في الحب، ما له من محيص[135]، وفي هذا قول عبيد الله:

لعمري لئن شطّت بعمرة دارها ... لقد كنتُ من وشكِ الفراقِ اليحُ[136]

وقول عروة ا بن أذينة:

فَكَأَنّي يَومَ بَينِهُم ... جَسَدٌ لَيسَت لَهُ نَسَمَة[137]

وقوله:

إِن تُمسِ سالِيَةً وَلَيسَ بِذِكرِها ... كَلَفاً أَخافُ بِهَجرِيَ اِستِقتالَها[138]

وقوله:

---

[132] م.ن: 144- 145، ينظر: 226 و269 ().
[133] شعره: 107 ().
[134] م.ن: 120 ().
[135] ينظر: الحب العذري نشأته وتطوره: 142، وينظر: في الحب والحب العذري: 22 ().
[136] الاغاني: 9/173 ().
[137] شعره: 99 ().
[138] م.ن: 146 ().

وَلَمّا بَدا لي مِنكِ مَيلٌ مَعَ العِدى سِوايَ وَلَم يَحدُث سِواكِ بَديلُ
صَدَدتُ كَما صَدَّ الرَمِيُّ تَطاوَلَت بِهِ مُدَّةُ الأَيّام وَهوَ قَتيلُ[139]

يستجيب قلب الشاعر المرهف لحب الحبيبة على الرغم من صدها وهجرها؛ لأنه حسن الظن بها، حافظ غيبتها، متأمّل عودتها، كاتم أسرارها، ومن ذلك يقول النعمان بن بشير الأنصاري:

فَصَبراً عَلى شَحطِ النَوى وَلَعَلها مِنَ الدَهرِ يَوماً أَن تَفيقَ وَتَندَما[140]

وقول عروة بن أذينة:

وَقَولي عَسى أَن تَجزِني الوُدَّ أَو تَرى فَتُعتِبَ يَوماً كَيفَ دَأبي وَدَأبُها[141]

وقوله:

كَتَمتُ لَها الأَسرارَ غَيرَ مُثيبَةٍ وَلا تَصلُحُ الأَسرارُ إِلا بِكاتِمِ
فَلَم تُجزِني إِلا البِعادَ فَلَيتَني بِذلِكَ مِن مَكتومِها غَيرُ عالِمِ[142]

والشاعر يقاوم لوم الأهل او الوشاة او العُذّال ويكبح جماح اغرائهم وتحريضهم بهجرها؛ بل ان لومهم وعذلهم لا يُثنيه عن حبيبته وإنما يدفعه الى حبها والتمسك بها، وفي ذلك يقول عروة:

إِذا الوُشاةُ لَحَوا فيها عَصَيتُهُمُ وَخِلتُ أَنّ بِسُعدى اللَومَ يُغريني[143]

وقوله:

أَيّامُ سُعدى هَوى نَفسي وَنيقَتِها مَن لامَ زَيَّنَها عِندي بِتَزيينِ[144]

وقوله:

يَقولُ لِيَ الواشونَ سُعدى بِخَيلَةٌ عَلَيكَ مُعَنٍّ وُدُّها وَطِلابُها
فَدَعها وَلا تَكلَف بِها إِذ تَغَيَّرَت فَلَم يَبقَ إِلّا هَجرُها وَاِجتِنابُها
فَقُلتُ لَهُم سُعدى عَلَيَّ كَريمَةٌ وَكَالموتِ بَلَهَ الصُرمِ عِندي عِتابُها[145]

---

[139] م.ن: 346 ()
[140] شعره: 126 ().
[141] شعره: 273 ().
[142] م.ن: 234، وينظر: 196 ()
[143] م.ن: 115 ()
[144] م.ن: 113، وينظر: 392 ()
[145] م.ن: 266- 267، وينظر: 75، 139، 149، 213، 214، 265، 266، 267، 271، 288، 290، 292 ()

وقوله:

قالَ العَواذِلُ قَد حارَبتَ في فَنَنٍ ... مِن الصِبا وَشَبابِ الغُصنِ رَيعانا
وَمَن يُطِعهُنَّ يَقرَع سنه ندما ... وَلا يَكُنَّ لَهُ في الخَيرِ أَعوانا
لا يَرضَ من سَخطَةٍ وَالحَقُّ مَغضَبَةٌ ... مَن كانَ مِن فَضلِنا المَعلومِ غَضبانا([146])

وقول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي:

وإن أولع الواشون عمداً بوصلنا ... فنحنُ بتجديد المودة أجدرُ([147])

وقول أبي الأسود الدؤلي:

لَقَد جَدَّ في سَلمى الشَكاةُ وَلَلّذي ... يَقولونَ لَو يَبدو لَكَ الرُشدُ أَرشَدُ([148])

اتضح من دراسة هذه النصوص أنّ الشعر العذري ظهر من الفقهاء الشعراء، وليس من بني عذرة، ولكن العذريين اشتهروا به؛ لأنهم وقفوا اشعارهم عليه بخلاف الفقهاء الذين لم يوقّفوا شعرهم عنده قط، هذا فضلا عن ان الفقهاء تقيّدوا بتعاليم الإسلام وأجازوا لأنفسهم الحديث عن العلاقة مع المرأة ضمن الحدود التي يسمح بها الدين فاكسبوا حديثهم طابعا دينيا، واطارا قدسيا ((يؤكد للمرأة إنسانيتها ويرقيها منزلة روحية تنزِّهها عن ان تكون وسيلة لمتعة رخيصة فخففت لها قلوبهم إعجاباً بريئاً بما تتميز به من فتنة وجمال، وتقديرا لما تتحلى به من عفة وفضيلة))([149]).وتجلّت عفتهم في حديثهم عن لواعج الحب وما يتركه من اثر وما يبعث في نفوسهم من عاطفة روحية عميقة وهم يجاهدون غصص الحب من صد، وهجر، ولوم، ووشاة، ومطل، ووعد.. الخ.فالشاعر يعني فيه بتحليل نفسيته اكثر من عنايته بالتصوير الحسي؛ ((اذ ان جميع المحاسن والزينة ما هي إلا نقوش واصباغ ..اذا نظرت إليها النفوس الحزينة حنّت إليها وتشوقت لها لا هياما بها في ذاتها ولكن لدلالاتها ومعانيها))([150])، والحب الحقيقي إنما هو صلة روحية تربط بين قلبين.اتجه الفقهاء الشعراء في غزلهم اتجاها فقهيا، فهم يعرفون جيدا ان الذي قسمه الله سبحانه وتعالى لهم سوف يأتيهم إن كان هذا الرزق مالا او حبيبا فهم لا يكلِّفون أنفسهم فوق طاقتها لقوله تعالى ((لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا))([151]) فهم لايعصُون ربهم ولكنهم لاينفكون عن شكواهم من حبهم؛ لأنه جزء من كيانهم ووجودهم ومن ذلك قول عروة:

لَم يُعطِ قَلبُكَ عَن سُعدى وَلَو بَخِلَت ... صَبراً وَلَم تَسقِ عَنها النَفسَ سُلوانا
فاقصِد بِرَأيِكَ عَنها قَصدَ مُجتَنِبٍ ... ما لا تُطيقُ فَقَد دانَتكَ أَديانا([152])

ويتمسك الفقيه بما يدعو اليه الشرع من بث العدل ورفع الظلم وترك الميل والجور والادعاء للوصول الى أسمى العلاقات الوجدانية فكان شعرهم الغزلي مرآة صافية لما تمسكوا بتحقيقه وأفتوا بالتزامه.

الشاعر عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي يستنكر هجران حبيبته؛ لأنه يرى الهجر في حد ذاته ظلما وجورا في قوله:

---

[146] م.ن: 130، وينظر: 194 – 195.
[147] الاغاني: 9/171.
[148] ديوانه: 107.
[149] رحلة الأدب الى اروبا: 61.
[150] النقد الأدبي الحديث: 202.
[151] سورة البقرة: 286.
[152] شعره: 127، وينظر: 226.

أأتركَ إتيانَ الحبيب تأثّماً ألا إن هجرانَ الحبيب هو الإثمُ([153])

وقول عروة ا بن أذينة:

وَما اِجتِنابُكَ مَن تَهوى تُباعِدُهُ ظُلماً وَتَهجُرُهُ حيناً إلى حينِ
إنّي اِمرؤ لَم يَخُن وُدّي مُكاذَبَةٌ وَلا الغِنى حِفظَ أَهلِ الوُدِّ يُنسيني([154])

ويستنكر شريح القاضي جور العلاقة مع المرأة، فقال في جارٍ له يضرب امرأته بقوله:

رأيتُ رجالاً يضربون نساءهُم فشُلَّت يميني يومَ أضرب زينبا
أأضربها في غير ذنبٍ أتَت بهِ فما العدلُ مني ضربُ من ليس مذنبا([155])

والفقهاء يلتزمون ما امر الله ونبيه من ان يكون المرء مؤمنا قويا ذا حنكة وحزم متيقظ الضمير قوي الجِنان، مالكا لإرادته مقدرا لأحواله، فلا يطلق العنان لمشاعره ان تجنح به الى المهاوي وان إباءه وعزة نفسه وشممه لتزجيه الى مبارحة أي هوىً اذا كان فيه ذلٌ واستكانة ومن ذلك قول عروة ا بن أذينة:

إنّي كَريمٌ آبى الهَوانَ مِن الخلّـ لَة قَد رابَني تَجَهُّمُها
وَاِعدِلُ النَفسَ وَهيَ آلِفَةٌ عَن الهَوى لِلرَّدى يُقَدِّمُها
لِمِرَّةِ الحَزمِ لا أُفَرِّطُها أَنقُضُ ما دونَها وَأبرِمُها
أَهدي لَها مُخطِىء الرشادِ كَما يُهدي لِأُمِّ الطَريقِ مَخرِمُها([156])

الحب عند الفقهاء أساسه العقل الذي يكبح جماح الاستسلام للعواطف والاستخذاء للمشاعر، فلا يلتبس عليهم التفريق بين الخطأ والصواب وفي ذلك يقول عروة ا بن أذينة:

وَإذا المَوَدَّةُ لَم تَكُن مَصدوقَةً كَرِه اللَبيبُ بِعَقلِهِ اِستِقبالَها([157])

وقوله:

وَاليَأسُ أحسَنُ مِن رَجاءٍ كاذِبٍ إذ لَم يَكُن وَصلُ الصَديقِ بَدا لَها([158])

---

[153] الاغاني: 9/ 174 ().
[154] شعره: 116، وينظر: 332 ().
[155] الاخبار الموفقيات: 47، والوفيات: 82 ().
[156] شعره: 82 - 83 ().
[157] م.ن: 140 ().
[158] م.ن: 147 ().

ومن مقاييس حب الفقيه للمرأة طاعتها لزوجها ومحافظتها على عهده رعايةً للدين والتزاما بمبادئه ومن هذا يرى أبو الأسود الدؤلي بحكم واجبه الشرعي أن يُلزِم زوجتَه بما يفرضه الشرع فإن شقَّت عصا طاعته فلا ذنب له في نسيانها بقوله:

تُعاتِبُني عِرسي عَلى أَن أَطيعَها ... لَقَد كَذَبَتها نَفسُها ما تَمَنَّتِ
وَظَنَّت بِأَنّي كُلَّما رَضَيَت بِهِ ... رَضِيتُ بِهِ يا جَهلَها كَيفَ ظَنَّتِ
وَقَد غَرَّها مِنّي عَلى الشَيبِ وَالبِلى ... جُنوني بِها جُنَّت حِيالي وَخُنَّتِ
وَلا ذَنبَ لي قَد قُلتُ في بَدءِ أَمرِنا ... وَلَو عَلِمَت ما عُلِّمَت ما تَعَنتِ
تَشَكّى إِلى جاراتِها وَبَناتِها ... إِذا لَم تَجِد ذَنباً عَلَينا تَجَنَّتِ
أَلَم تَعلَمي أَنّي إِذا خِفتُ جَفوَةً ... بِمَنزِلَةٍ أَبعَدتُ عَنها مَطيَّتي
وَإِنّي إِذا شَقَّت عَليَّ قَرينَتي ... ذَهَلتُ وَلَم أَحنِ إِذا هيَ حَنَّتِ[159]

وقوله:

وَإِنَّكِ إِن لا تَترُكي ما يُريبُني ... أَصِبكِ بِشَرٍّ ناجِزٍ غَيرَ أَحقادِ[160]

وقوله:

وَإِن تَنقُضي العَهدَ الَّذي كانَ بَينَنا ... وَتُبدي بِباقي وُدِّكِ المُتَخَلِّسِ
فَإِنّي فَلا يَغرُرِكِ مِنّي تَجَمُّلي ... لَأَسلى الحُبابَ بِالجِنابِ المُكَيَّسِ
وَأَعلَمُ أَنَّ الأَرضَ فيها مَنادِحٌ ... لِمَن كانَ لَم تُسدَد عَليهِ بِمَحبِسِ
وَكُنتُ امرأ لا صُحبَةَ السوء أَرتجي ... وَلا أَنا نَوّامٌ بِغَيرِ مُعَرَّسِ[161]

ويسير النعمان بن بشير الأنصاري في النهج الفقهي نفسه في حبه لزوجته بقوله:

تحاوِلُ وِدّي إِذ تَوَلّت بِوِدِّها ... أَبى اللهُ قَبلَ اليَومِ أَن أَتَهَضَّما
فَلَستُ كَمَن يَبني عَلى الهونِ بَيتَهُ ... إِذا سيمَ يَوماً خُطَّةَ الضَيمِ خَيَّما
وَإِنّي بِحَمدِ اللهِ لَم تُمسِ لَيلَةٌ ... مِنَ الدَهرِ أُلفى عارِياً مُتَقَسِّما
وَلَكِن رَفيقٌ بِالوِصالِ وَمِزحَلٌ ... عَزوفٌ إِذا كانَ التَجَنُّبُ أَحزَما[162]

---

[159] ديوانه: 106- 107 ().

[160] م.ن: 105 ().

[161] م.ن: 102- 103، المُتَخَلِس : المُستلب، الجناب: التباعد، المكيس: من الكيِّس وهو العقل ().

[162] شعره: 121، 122، 126، مسحل: زحل عن مكانه زحولا، وتزَحَّل : تنحى وتباعد ().

ويخاطب شُريح القاضي زوجته بقوله:

خذي العفوَ تستدمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين اغضبُ
فإنّي رأيتُ الحب في القلبِ والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحبُّ يذهبُ([163])

ويعاتب أعشى همدان زوجته، طالبا منها الالتزام بالعهد الذي بينهما، علَّها تراجع نفسها ولا تلج في الآثام والعصيان بقوله:

لا تَدومي لي فَوَصلي دائِمٌ أَو تَهمّي لي بِهجرٍ أَو صِرامِ
أَو تَكوني مِثلَ بَرقٍ خُلَّبٍ خادِعٍ يَلمَعُ في عُرضِ الغَمامِ
أَو كَتَخييلِ سَرابٍ مُعرِضٍ بِفَلاةٍ أَو طُروقٍ في المَنامِ
فا علمي إِن كُنتِ لَمّا تَعلَمي وَمتى ما تَفعلي ذاكَ تُلامي
بِعدَما كانَ الَّذي فَلا تُتبِعي الإِحسانَ إِلّا بِالتَمامِ
لا تَناسَي كُلَّ ما أَعطَيتِني مِن عُهودٍ وَمَواثيقَ عِظامِ
وَاذكُري الوَعدَ الَّذي واعَدتِني لَيلَةَ النِصفِ مِنَ الشَهرِ الحَرامِ
فَلَئِن بَدَّلتِ أَو خِستِ بِنا وَتَجَرَّأتِ عَلى أَمرٍ صَمامِ
لا تُبالينَ إِذاً مِن بَعدِها أَبَداً تَرَكَ صَلاةٍ أَو صِيامِ
راجِعي الوَصلَ وَرُدّي نَظرَةً لا تَلِجّي في طِماحٍ وَآثامِ([164])

وقال في زوجته الأخرى:

[163] () حماسة الظرفاء: 163، وبهجة المجلس: 2/56.
[164] () الاغاني: 6/53. ام صمام: الغدر والحنث.

فَلَمّا بَدا لِيَ مِنها البَذا ... ءَ صَبَّحتُها بِثَلاثٍ عِجالِ
ثَلاثاً خَرَجنَ جَميعاً بِها ... فَخَلَّينَها ذاتَ بَيتٍ وَمالِ
إِلى أَهلِها غَيرَ مَخلوعَةٍ ... وَما مَسَّها عِندَنا مِن نَكالِ
فَأَمسَت تَحِنَّ حَنينَ اللِقا ... حِ مِن جَزَعٍ إِثرَ مَن لا يُبالي
فَحِنّي حَنينَكِ وَاِستَيقِني ... بِأَنّا اِطَّرَحناكِ ذاتَ الشِمالِ
وَأَن لا رُجوعَ فَلا تُكذِبيـ ... نَ ما حَنَّتِ النيبُ إِثرَ الفِصالِ

وَلا تَحسِبيني بَأَنّي نَدِم تُ كَلّا وَخالِقَنا ذي الجَلالِ([165])

[165]() 6/52 :م.ن.

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم
2- اتجاهات الشعر في العصر الأموي: د. صلاح الدين الهادي، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1986م.
3- اخبار القضاة: وكيع (محمد خلف بن خلف بن حيان)، تصحيح وتعليق: عبد العزيز مصطفى المراغي، ط1، مط الاستقامة – القاهرة، 1947م.
4- اخبار الموفقيات: الزبير بن بكّار، تحـ:د. سامي مكي العاني، مط العاني – بغداد، د.ت.
5- ادب الفقهاء: د. عبد الله كنون، دار الكتاب اللبناني – بيروت، د.ت.
6- الاغاني: الاصبهاني، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزراة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت.
7- الامالي: الشريف المرتضى، تحـ: ابو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي، 1954م.
8- الامتاع والمؤانسة: التوحيدي، تحـ: احمد امين، احمد الزين دار مكتبة الحياة – بيروت، د.ت.
9- بهجة المجالس وأنس المجالس: القرطبي ، تحـ: موسى الخولي، مراجعة: عبد القادر القبط، الدار المصرية للنشر، د.ت.
10- البيان والتبيين: الجاحظ: تحـ: عبد السلام محمد هارون، ط5، مكتبة الخانجي القاهرة، 1985م.
11- تاريخ اداب العرب: مصطفى صادق الرافعي، ط2، دار الكتاب العربي – بيروت، 1974م
12- تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق: الانطاكي، مط البابي الحلبي، مصر ، 1307هـ.
13- تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام: د. شكري فيصل، ط2، مط جامعة دمشق، 1962م.
14- الحب العذري نشأته وتطوره: احمد عبد الستار الجواري، طبعة دار الكتاب العربي، مصر ، د.ت.
15- الحب عند العرب: احمد تيمور باشا، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، 1964م.
16- حماسة الظرفاء من اشعار المحدثين والقدماء: العاني، تحـ: محمد جبار المعيبد، منشورات وزارة الاعلام - العراق، 1973م.
17- دراسات في علم النفس الأدبي: حامد عبد القادر، نشر لجنة البيان العربي، القاهرة، د.ت.
18- دراسات في النص الشعري عصر صدر الاسلام وبني امية: عبده بدوي، ط1، منشورات ذات السلاسل – الكويت، 1987م.
19- ديوان ابي الاسود الدؤلي: صنعة السكري، تحـ: محمد حسن آل ياسين، ط1، دار الكتاب الجديد – بيروت، 1974م.
20- رحلة الأدب الى اروبا: محمد مفيد الشوباشي، دار المعارف – مصر، 1968م.
21- روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ابن قيم الجوزية: تحـ : احمد عبيد، مط السعادة – مصر، 1956م.
22- زهر الاداب وثمر الالباب: الحصري، تحـ: زكي مبارك، ط4، دار الجبل للنشر والتوزيع والطباعة – بيروت، 1972م.
23- سنن الترمذي: تحـ: ابراهيم عطوة عوض، مط البابي الحلبي – مصر، 1962م.
24- الشاعر الاسلامي تحت سلطة الخلافة: داوود سلوم، ط2، عالم الكتب- بيروت، 1985م.
25- شرح ديوان الحماسة : المرزوقي، تحـ: محمد جبار المعيبد، نشر: احمد امين وعبد السلام محمد هارون، ط2، مط لجنة التأليف والنشر، 1968م.
26- الشعراء نقّاداً: د. عبد الجبار المطلبي، ط1، بغداد، 1986م.
27- شعر عروة بن أذينة جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، مكتبة الاندلس – بغداد، 1970م.
28- شعر النعمان بن بشير الانصاري: تحقيق وتقديم: د. يحيى الجبوري، دار المعارف- بغداد، 1968م.
29- الشعر والشعراء: ابن قتيبة: تحقيق وشرح: احمد محمد شاكر، دار المعارف – القاهرة، د.ت.

الملخص:
اتضح اثر الاسلام وصداه الواسع في ظهور الغزل العذري وخروجه، من كيان الفقهاء الشعراء، وليس من بني عذرة، ولكن العذريين اشتهروا به؛ لانهم وقفوا اشعارهم عليه بخلاف الفقهاء الذين لم يقفوا عنده قط، هذا فضلا عن ان الفقهاء تقيّدوا بتعاليم الاسلام واجازوا لانفسهم الحديث عن العلاقة مع المرأة ضمن الحدود التي يسمح بها الدين واضفوا على المرأة طابعا قدسيا يؤكد إنسانيتها وينزِّهها عن ان تكون مجرد وسيلة لمتعة رخيصة ومن اجل هذا راح الفقيه يرسم للمرأة المحبوبة مثلا اعلى قائما على اسس الجمال اخُلقي

30- **الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني امية: د. شوقي ضيف، ط1، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، 1967م.**
31- **طبقات الفقهاء: (الشيرازي)، تصحيح ومراجعة الشيخ: خليل الميس، دار القلم –بيروت، 1957م.**
32- **طوق الحمامة في الأُلفة والآلاف: ابن حزم الاندلسي، تحـ: صلاح الدين القاسمي، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، 1986م.**
33- **العِبَر في خبر مِن غبرَ: الذهبي، تحـ: ابو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان، د.ت.**
34- **العقد الفريد: ابن عبد ربه الاندلسي، تحـ: محمد سعيد العريان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.**
35- **العمدة في محاسن الشعر وادبه ونقده: ابن رشيق القيرواني، تحـ: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجبل- بيروت – لبنان، 1972م.**
36- **الغزل العذري دراسة في الحب المقموع: يوسف اليوسف، ط2، دار الحقائق، 1982م.**
37- **الغزل عند العرب: فادية جان كلود، ترجمة: ابراهيم الكيالي/ط1، وزارة الثقافة – دمشق، 1979م.**
38- **الغزل في العصر الجاهلي: احمد محمد الحوفي، ط2، مكتبة نهضة مصر، 1961م**
39- **في الحب والحب العذري:د. صادق جلال العظم، ط1، منشورات نزار قباني –بيروت، 1968م.**
40- **الكامل في التاريخ: ابن الاثير، تحـ: د. محمد يوسف الدقائق، ط1، دار الكتب العلمية- بيروت، 1987م.**
41- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: الراغب الاصبهاني، منشورات مكتبة دار الحياة – بيروت د.ت.**
42- **المرأة في العصر الجاهلي: د. علي الهاشمي، مطبعة دار المعارف – بغداد، 1964م.**
43- **المرأة هذا اللغز الأدبي: سامي الكيالي، 1947م.**
44- **مع الفقهاء الاسلام: عبد الغني احمد ناجي، ط1، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1985م.**
45- **الموازنة بين الشعراء : زكي مبارك، ط2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي –مصر، 1936م.**
46- **الموشى والظرف والظرفاء: الوشاء، تحـ: كمال مصطفى، ط2، مكتبة الخانجي – مصر، 1953م.**
47- **النقد الأدبي الحديث: محمد غنيمي هلال، ط15، مكتبة الانجلو المصرية، 1917م.**
48- **الوافي بالوفيات: الصفدي، باعتناء من س. د. بدر ينغ، دار النشر فرانز اشتايز بفيسيادن، 1970م.**

الرسائل الجامعية:
1- **صورة المرأة في الشعر الأموي: ساجدة هاشم الحيالي، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة، جامعة بغداد، كلية التربية، للبنات، 1988م.**
2- الملامح الرمزية في الغزل العذري الى نهاية العصر الأموي: حسن جبار محمد، رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة، جامعة بغداد، كلية الاداب،1992م.

والخَلقي قارنا جمالها بجمال الطبيعة ارث الطهارة الطبيعية مقتصرا على الاوصاف التي تقع عليها الاعين او الصور الخارجية التي يتلاقى فيها إنسان بإنسان موجزا فيه اشد الايجاز ناظرا الى هذا الجمال على انه زاد فني وخيال شعري ولهو بريء. اتخذ الغزل عند بعض الفقهاء طابعا فقهيا متضمنا معنى العتاب الموجَّه الى زوجاتهم وحبيباتهم.